ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقاومة شريف بوشوشة من خلال الكتابات الفرنسية

كتاب "لويس رين" الموسوم بـ "تاريخ انتفاضة ١٨٧١ في الجزائر" أنموذجًا

د. عبد القادر الميلق

أستاذ محاضر التاريخ الحديث والمعاصر

المركز الجامعي أفلو

الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

إن الأقلام التي دونت صيرورة المقاومة الشعبية في الجزائر من خلال مشاهدتها ومعاصرتها للأحداث هي الأقلام الفرنسية، فأصبحت وبحكم تلك المعاصرة المصدر الأساسي الذي لا يستغني عنه أي باحث في تاريخ المقاومة. غير أن ما يلاحظ عن هذه الكتابات هو التشويه السافر والتقزيم المعلن لأصحابها، من هنا يجب في نظرنا أنه على الباحث الجزائري إعادة النظر في مثل هذه المصادر ومراجعتها؛ لأنها وضعت المقاومة وزعمائها في إطارها غير الصحيح. ارتأيت في هذه الورقة العلمية المتواضعة أن أنوه بالأسطوغرافيا التي تناولت مقاومة الشريف بوشوشة، ثم التطرق إلى منهج لويس رين" Louis Rinn" في كتاباته، وصولاً إلى توضيح صورة مقاومة الشريف بوشوشة من منظور لويس رين، وأخيرًا في ختام هذا المقال العلمي المتواضع نخلص إلى جملة من النتائج التي تكون بمثابة الإطار الحقيقي لمقاومة الشريف بوشوشة كخطوة نحو إعادة النظر فيما كتبه الفرنسيون عن هذا البطل ومقاومته، وذلك من خلال كتاب لويس رين نموذجًا.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ نوفمبر ٢٠١٧

تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ مارس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

لويس رين، الشريف بوشوشة، الإستدمار الفرنسي، المقاومات الشعبية، الطرق الصوفية

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.12816/0054908

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد القادر الميلق. "مقاومة شريف بوشوشة من خلال الكتابات الفرنسية: كتاب "لويس رين" الموسوم بـ "تاريخ انتفاضة ١٨٧١ في الجزائر" أنموذجا "-. دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الثالث والأربعون؛ مارس ٢٠١٩. ص ٥٤ – ٦٢.

مُقَدِّمَةُ

يعتبر موضوع المقاومات الشعبية في الجزائر، وفي شقها غير المنتظم ذا شأن كبير، وشأو عظيم. ذلك أنه من حيث الأهمية العلمية يعبر عن أرضية ومشتلة لقن من خلالها الجزائريون نظم المقاومة في وجه أخطر وأبشع السياسات الاستعمارية في دنيا الناس. أيضًا نلمس فيه جانب سياسة الترهيب؛ أي الطابع العسكري في وجه الاستدمار الفرنسي. أما عن دواعي اختيار هكذا موضوع اكتفي بذكر بعض منها، وهذا لأنني وسعت فيها في المتن، منها: هو محاولة استخراج صورة أقرب إلى الموضوعية، وإيمانًا مني في فهم مظاهر مقاومة المكنى ببوشوشة من خلال دائرة التناول الفرنسي، وصولاً إلى رسم معالم قراءتها؛ وطنيًا وقوميًا. كل هذا لم يخرج عن منهجين: المنهج التاريخي التحليلي في أغلب زوايا هذا المقال، وليكتمل بالمنهج التاريخي التركيبي. إن الموضوع دُرس من طرف الفرنسيين الإخباريين، مثلاً Mangin,: NotesSur l'histoire de Laghouat، ماعدا هذا لم توجد دراسات أكاديمية بحتة، اللهم دراسة مثل دراسة: محمد بن معمر: الشريف بوشوشة: زعيم ثورة 1871م في صحراء الجزائر الشرقية، في مجلة عصور، مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، جامعة وهران 2002، العدد (١)، مع

التنبيه على أنني أوردت جانبًا من الدراسات السابقة في متن المقال.

أولاً: أسطوغرافيا مقاومة الشريف بوشوشة

بدايةً نحن أمام مصطلح فرض نفسه في ميدان الدراسات الحديثة في مجال الكتابة التاريخية، ألا وهو مصطلح الأسطوغرافيا، التي يحددها المؤرخ المغربي "عبد الله العروي" بقوله: "...هي تاريخ التاريخ.."،[١] ثم يضيف قائلاً: "... لما أسميناه بالتاريخيات، مقابل كلمة أسطوغرافيا وهذه تعني، بالمعنى الضيق، مجموع النتائج التي توصل إليها الدارسون للكتابات التقليدية مثل الحوليات والمذكرات والأخبار الجزئية والطبقات والسير...، وفي المعنى الواسع، دراسة طرق البحث والاستقصاء في شؤون الماضي.."،[٢] يشير التحديد الأول إلى المضمون والثاني إلى الشكل.[٣] إذا الأسطوغرافيا تعني العناية بكل محتويات المادة التاريخية؛ من حيث المصادر أولاً، ثم الاختيارات المنهجية الصريحة أو الضمنية. طبعًا هذا التعريف يقودنا إلى طرح سؤال: يكمن في ماهية مواصفات الكتابة الاسطواغرافيا الاستعمارية؟

إن ما يميز الأسطوغرافيا الاستعمارية التي عالجت تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠ – ١٩٥٤)[٤] هو ارتباطها بأرشيف الإدارة الاستعمارية، ارتباطًا يجعلهًا تعيد إنتاج تحاليلها المختلفة وخلاصاتها العامة.[٥] أي رسم تصور مسبق وأحكام نابعة من الذهنية الفرنسية التي تتعرض وتتجافى مع الواقع والحدث التاريخي الناشئ والمحدث على أرض غير أرضهم، وإنسان ومجتمع مغاير لهم تمامًا. ويعتبر تاريخ ١٦ديسمبر١٨٣١م البداية الأولى والأثر الوحيد لاهتمام الفرنسيين بالدراسات التاريخية حول الجزائر؛ إذ سمح الجنرال بيرتزين"P.Berthezene" للسيد شيافي "Sciavi" -الذي يزعم أنه عالما للآثار بينما كان من الذين يجمعون الآثار القديمة ويبيعونها بأثمان طائلة-أن يقوم بمجموعة من التنقيبات في المنازل و الحدائق العامة.[٦] يفهم من كلام بيربروجر "L.A ,Berbrugger" السابق الذكر أن الفرنسيين لم تكن نواياهم سليمة في تعاملهم مع تاريخ وتراث الجزائر، حيث أطلقوا العنان لمن هم تجار ومهربين للذاكرة الجزائرية في تقليدهم لمهمة الإشراف عليها، ثم فقدان هؤلاء لآليات كتابة حتى تقارير عن طبيعة عملهم اليومي، فما بالك في مجال البحث والتنقيب في الآثار القديمة كما يزعم الجنرال "بيرتزين". وهنا أنوه إلى أن كل التقارير التي كانت ترفع من عمال الإدارة الفرنسية إلى رؤسائهم تصب في مصلحة خدمة الاستعمار الفرنسي، حيث كان يشوبها الطابع الدعائي المتعدد الأغراض؛ الطابع الاستكشافي، الطابع الاستراتيجي والتجاري، فمثلاً على سبيل المثال نجد في التقرير الذي بعث به الوالي العام بيجو"Bugeaud" إلى الماريشال سولت"SOULT"، وفيه يقول: "...وبسيطرتنا على هذه المناطق تنفتح لنا آفاق واسعة لازدهار تجارتنا وربطها بإفريقيا الداخلية..."."[٧] فمضمون هذا التقرير اقتصادي استراتيجي دعائي. وأحسن مَنْ عبر عن المدرسة التاريخية الفرنسية وكيفية تعاملها مع تاريخنا، هو شيخ المؤرخين المرحوم "أبو القاسم سعد الله"، إذ يقول: ".. ومن الأسف أن تاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر ما يزال غير مدروس. فالمؤرخون الفرنسيون أمثال (جوليان، وايفير، وآخرون،..) اهتموا "ببطولات" جيشهم ورواد إدارتهم في الجزائر وكذلك تطور الجالية الأوربية فيها و"انجازات "العهد الاستعماري في ميدان الطرق والزراعة والصناعات ونحو ذلك مما كان يهدف إلى خدمة الدولة الفرنسية وإسعاد الجالية الأوروبية..."."[٨]

أردت من خلال إيراد كلام المرحوم "أبو القاسم سعد الله" أن أصل إلى أمر في غاية الأهمية؛ وهو أن المدرسة الفرنسية سعت ونجحت في تشويه وتقديم قضايا تاريخنا عبر العصور في صورته غير الحقيقية، وبالمقابل نجد ما قدمناه وما أبديناه تجاه المدرسة الفرنسية، هو المقاومة الشفوية والرفض العاطفي دون تقديم البديل لما تنتج؟.[٩] وأما عن الدراسات التي تناولت مقاومة بوشوشة من طرف الفرنسيين فتتمثل في: دراسة "Louis Rinn,Histoire de L'insurrection de 1871, en Algérie. Alger, 1891." ودراسة " Le "Les Medaganat, ,in(R.A) N° 30,1886. Chatelier,

وأما من طرف الجزائريين فهي قليلة جدًا، وتتمثل في دراسة المؤرخ المرحوم "يحي بوعزيز" في كتابه: "ثورات الجزائر في القرنين ١٩ و٢٠"، ج١، منشورات متحف المجاهد، الجزائر ١٩٩٦. يُضاف إليها الدراسة القيمة التي أعدها المؤرخ الجزائري" محمد بن معمر" محمد بن معمر: الشريف بوشوشة: زعيم ثورة ١٨٧١م في صحراء الجزائر الشرقية، في مجلة عصور، مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، جامعة وهران٢٠٠٢، العدد (١)".

ثانيًا: منهج لويس رين في كتابة كتابه "تاريخ انتفاضة ١٨٧١ في الجزائر"

بداية من هو" لويس رين"؟ اسمه الكامل لويس ماري رين، ولد فرنسا سنة١٨٣٨م رئيس سابق في المصلحة المركزية لشؤون الأهالي، ومستشار سابق للحكومة الفرنسية، ضابط جوقة الشرف، دخل إلى مدرسة سان سير العسكرية، جاء إلى الجزائر سنة ١٨٦٤م ليعمل في مصلحة شؤون الأهالي، كان متقنا للغة العربية.[١٠] يُعّدَ لويس رين من الكتاب العسكريين الذين بلغوا من الشهرة والسمعة والأثر مبلغًا غير قليل، فهو العسكري الذي اهتم برجالات الطرق الصوفية والزوايا المنتشرة في الجزائر،[١١] ويعتبر" لويس رين" من كتاب ضباط المكاتب العربية.[١٢] تقلد أيضًا في الجزائر قائد فيلق مشاة، وقائد المصلحة المركزية لشؤون الأهالي في الحكومة العامة، شغل أيضًا منصب نائب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية، واعتبر من الفرنسيين الأكثر معرفة ودراية بالشؤون الإسلامية، وبالخصوص مسائل القبائل. له مؤلف عن الطرق الصوفية والإخوان في الجزائر، الذي حدد فيه وضعية وحال الإسلام في الجزائر، حيث استطاع تقدير عدد المريدين من الطرق الصوفية؛ كالرحمانية، والقادرية، والتيجانية.[١٣] غير أن بعض المؤرخين من يعده ضمن كتاب العهد العسكري غير المتخصصين[١٤] رغم ظهور كتابه "تاريخ انتفاضة ١٨٧١م في الجزائر "سنة١٨٩١ باريس.[١٥]

وأما عن منهج "لويس رين" فهو لا يختلف عن الكتاب الفرنسيين العسكريين حين ذهب إلى نفس منحى من أن القوى الاستعمارية بما فيها فرنسا زعمت إدخال الحضارة الحديثة للجزائر حسب ادعائهم، ثم نجده يعمق دراساته على الحركات الدينية التي عرفتها الجزائر، التي ساهمت حسب رأيه في تعبئة الأهالي ضد السياسة الفرنسية، وهذا من طرف رجال الدين، من هنا جند كل كتاباته للوقوف في وجهها؛ عن طريق إحصاء أماكنها ومجال انتشارها.[١٦] فيعزو سبب اندلاع مقاومتي "مقاومة واحة العامري ١٨٧٦م" و"ثورة الأوراس ١٨٧٩م"، وانتفاضة الجنوب الوهراني[١٧] للطريقة الرحمانية.[١٨] ولعل الذي يلاحظ منهج لويس رين في كتاباته هو إدراج الآراء السياسية التي تخدم فرنسا، فمثلاً يعتمد تقسيم الطرق الصوفية إلى مناوئة كالرحمانية، ومعاونة للفرنسيين مثل الطريقة القادرية،[١٩] طبعًا هذا المنهج تفرضه اعتبارات؛ منها أن المؤرخين الاستعماريين قد كتبوا تاريخ الجزائر بوسائل فكرية وأدوات منهجية ارتبطت بوضعية العلوم الإنسانية والتاريخ في عصرهم. إنهم – مثل المؤرخين في العالم – قد تأثروا بأصولهم الاجتماعية وبالبيئة السياسية المحيطة وبالمناخ الفكري الثقافي السائد.[٢٠] فما هي يا ترى حقيقة وصورة مقاومة الشريف بوشوشة من وجهة نظر لويس رين؟

ثالثًا: صورة مقاومة الشريف بوشوشة من منظور" لويس رين":

اخترت الكتابة في موضوع مقاومة الشريف بوشوشة لاعتبارات منها، أن المقاومة طيلة القرن التاسع عشر عرفت أسماء كثيرة عرف منها النزر القليل، وبالمقابل نجد الكثير ما زال في طي النسيان، ولا تكاد تجد له ذكر عن بداياته الأولى كما هو الحال مع الشريف بوشوشة وعن بيئته، فنحن نجهل أصوله وشبابه والمواهب التي صقلت شخصية هذا البطل، كذلك الحال بالنسبة لبوبغلة، وبوحمار، وبوعود، وبوسيف...الخ، الذين نجهل أصلهم وفصلهم.[٢١] وهناك سبب وجيه جعلني أختار البحث في هذه الشخصية الوطنية التي تزعمت الثورة في الصحراء الشرقية.[٢٢]

هو تناولها من طرف الفرنسيين الذين شوهوا وزيفوا من الحقائق ما الله به عليم. حيث أن هذه الشخصية الوطنية للأسف وفي حدود اطلاعي لم تدرس دراسة علمية تزيل اللثام عن أباطيل ثبتها ورسخها المؤرخون الفرنسيون؛ على غرار "لويس رين" في كتابه الذي هو قصدنا وعمدتنا في هذه الورقة، لماذا هذا الاختيار؟، يعتبر "لويس رين" المصدر الأول فيما يتعلق بمقاومة الشريف بوشوشة من حيث حجم المادة التاريخية، وكذلك الحال بالنسبة للعسكري الفرنسي لوشاتوليه "Le Chatelier".[٢٣] اللذين أعتقد أنهما سلطا الضوء على مقاومة بوشوشة بشيء من التفصيل، ومن منظار المدرسة الفرنسية فقط. لهذا سأحاول اقتباس بعض الآراء الخاطئة التي تنم عن العنصرية والشوفينية، ثم تبيان وجه الحقيقة في ذلك، ما أمكن إلى ذلك سبيلاً. فمن يكون بوشوشة؟

كلمة بوشوشة كنية لُقب واشتهر بها هذا البطل، وهي تعني الأشعر أي غزير الشعر أوفره، أو لخصلة

بارزة منه، واسمه الحقيقي محمد بن تومي بن إبراهيم من مواليد سنة ١٨٣٩[٢٤] في بلدة الغيشة بجبال العمور حيث الحيوية وصفاء الذهن واكتساب الشجاعة، مارس حرفة الرعي في صغره، وقضى مدة من حياته متنقلا في منطقة الزيبان. حيث درس في العديد من زواياها خصوصًا زاوية طولقة كما يقول سيمون.[٢٥] ذهب جل المؤرخين إلى أن هناك مجموعة من العوامل والظروف ساهمت في قيام مقاومة الشريف بوشوشة، هذا الأخير كان يراقب عن كثب وينتظر الفرصة المواتية ليسدد ضربته بعزيمة أكبر وإرادة أقوى،[٢٦] لقد امتدت هذه الثورة من وسط ستينيات القرن التاسع عشر إلى وسط سبعينياته (١٨٦٢-١٨٧٥م)، وقامت نتيجة تظافر مجموعة من العوامل والظروف؛ منها ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٨٦٤م،[٢٧] ومجاعة عام ١٨٦٧.[٢٨]

هذا فضلاً عن هزيمة الفرنسيين أمام الألمان سنة ١٨٧٠ ووقوع نابليون الثالث إمبراطور فرنسا في الأسر[٢٩] ودخول الأمير محي الدين ابن الأمير عبد القادر رفقة بن ناصر ابن شهرة إلى نفطة بتونس وكان ذلك في نوفمبر١٨٧٠م،[٣٠] واندلاع ثورة المقرانيين والرحمانيين،[٣١] يُضاف إلى هذا الانقلاب الذي قام به اليساريون ضد النظام الإمبراطوري وإعلانهم قيام الجمهورية الثالثة في تاريخ فرنسا في:١٨٧٠/٠٩/٠٤م ووقوع فرنسا في فوضى وتطاحن بين المدنيين والعسكريين حول الحكم،[٣٢] أيضًا صدور القرار الشهير القاضي بتجنيس يهود الجزائر بصفة جماعية بتاريخ ١٨٧٠/١٠/٢٤م،[٣٣] ثم انتفاضة الحنانشة بقيادة الكبلوتي بسوق أهراس يناير١٨٧١م، وأولاد عبدون في الشمال القسنطيني في فبراير، ثم النمامشة وأولاد عبيد استجابة لنداء محي الدين،[٣٤] زيادة على ذلك ما عُرف بالنزاع العائلي الذي كان على أشده حول السلطة والنفوذ بين أسرتي بوعكاز وبن قانة صاحبتي الجاه والسلطان في الصحراء الشرقية والذي انحصر إلى نزاع سياسي بين المقاومة وممثليها من جهة، وبين العدو وأنصاره من جهة أخرى.[٣٥]

وتتجلى الصورة الحقيقية التي تبناها ودافع عنها "لويس رين" حول مقاومة الشريف بوشوشة، في محاولة تعمده إغفال ذكر معظم حياته؛ فنحن نجهل أصوله وشبابه والمؤثرات والمواهب التي صقلت شخصية هذا البطل.[٣٦] ثم لم يسلم بوشوشة وثورته من التشويه السافر والحاقد الذي سلطته عليه الرواية الفرنسية، فهو في نظرها مجرد صعلوك متمرد على سلطتها، سارق وقاطع طريق ومحرض لأهل الصحراء ضدها، شريف مزيف، ومغامر خشن، وان حركته ما هي إلا أعمال إجرامية كانت تقوم بها جماعة المداقنات[٣٧] التي تكونت سنة ١٨٦٨م في تيديكلت واتخذت من السرقة والجرم والسلب والنهب وسفك الأرواح (القتل) عملاً لها في الصحراء.[٣٨]

بعد هذا نجد "لويس رين" يفتتح كتابه بالإصرار على إلصاق تهمة السرقة بحق الشريف بوشوشة وجعله من الجناة الفارين من السجن في أول حياته، حيث يخبرنا "لويس رين" أنه في يوم: ١٨٦٢/١٢/٢٢م قدم للمحكمة التأديبية في معسكر التي حكمت عليه بالسجن لأنه سرق، وبعد خروجه من سجن بوخنيفيس عام ١٨٦٣م، اتجه إلى فقيق ومنه إلى توات حيث شرع في جمع الأنصار وتحضيرهم للمقاومة.[٣٩] ونفس الكلام يختم به "لويس رين" أيضًا بمقدمة كتاب "لوشاتليه" لكتابه المداقنات. كل هذا التشويه السافر من "لويس رين" كي يوهم أي قارئ لسفره هذا؛ بأن مقاومة الشريف بوشوشة لا تخرج عن نطاق الصعلكة والسرقة؟ لكي يتسنى له وبسهولة إخراج مقاومة هذا البطل من رحم المقاومات الشعبية، متناسيًا أن لها نفس الخصائص والأبعاد مع مثيلاتها من المقاومات الشعبية، التي تحركت في إطار بعدين واضحين: البعد الديني، والبعد الوطني. وبعد هذا الاتهام المبني على غير دليل، تذهب بنا الرواية الفرنسية إلى أبعد من ذلك، في وصفها للقاعدة الشعبية التي حارب بها ومعها الشريف بوشوشة الفرنسيين؛ أنهم عبارة عن ساخطين وناقمين، بل ومجرمين.[٤٠]

وأما عن النقطة الثانية التي أثارها "لويس رين" أثناء وضعه مقدمة لكتاب "لوشاتلييه" لكتابه السابق ذكر كما مر بنا من قبل، هو نفيه عن الشريف بوشوشة مسألة الشرف، حيث أكد نهاية الشريف المزعوم بعد إلقاء القبض عليه سنة١٨٧٤م،[٤١] فكلمة نهاية الشريف المزعوم توحي إلى أن "لويس رين" يصبو إلى شيء خطير، وهو التشكيك حتى في صدق وأمانة بوشوشة، إذ الزعم ويزعم وزاعما وغيرها تدل عندنا على معاني الكذب وانتفاء الصدق والأمانة. ثم نجده يتطرق إلى نقطة ثالثة مشوهة أكثر من سابقاتها؛ وهي أن حركته ماهي إلا رد وانتقام من الذين سجنوه فقط،[٤٢] إذ ليست موجهة نحو الفرنسيين في الجزائر، بل وحسب

"لويس رين" هي تصفية حسابات شخصية، ليس لها علاقة بالحراك الشعبي المحموم في الجنوب في إطار المقاومات الشعبية، حيث قدم لنا شيخ المؤرخين المرحوم "أبو القاسم سعد الله" وصفًا لحالة الجنوب حينما زاحم الشمال في إطار تسجيل حضوره عن الدفاع عن السيادة الوطنية، حيث كان يغلي بالثورة كحرارة شمسه.[٤٣]

وللأسف ليس لدينا معلومات لمعرفة أحداث مقاومة الشريف بوشوشة في مرحلتها الأولى المعروفة بمرحلة الإعداد والتحضير التي دامت ست سنوات(١٨٦٢-١٨٦٩م)،[٤٤] التي تكاد تكون مضببة،[٤٥] إذ لا يمكننا معرفة سبب وحقيقة هذا الغموض. وكعادته "لويس رين" يطعن في مقاومة الشريف بوشوشة؛ ففي أحداث ١٨٧١/٠٣/٠٥م، وصل بوشوشة إلى نقوسة ودخوله مدينة ورقلة دون مقاومة وبعد مفاوضة أهلها، أقدم بوشوشة على سفك الدماء، غير مبال بحفظ العهود. فحسب رأي "رين" قام بوشوشة على قطع رؤوس خمسة من النبلاء الميزابيين، وهذا إرضاء لفريقه من المخادمة، بعد أن احتجزهم حينما أرادوا مفاوضته قبل دخوله ورقلة، حيث أخذ منهم فدية ٩٥٠٠ فرنك فرنسي، وسبب القيام بهذا العمل حسب "لوين" هو رغبة المخادمة والشعانبة في الاستيلاء على محلات الميزابيين العامرة.[٤٦] فلذلك لا عجب أن يتكرر مثل هذا الوصف من "لويس رين" وغيره من الكتاب الفرنسيين في معرض كلامهم عن المقاومة الشعبية وعن رجالاتها؛ فمرة ليست وطنية، ومرة مؤامرة خارجية تفتقد للسند الشعبي سواء على مستوى القيادة، أو القاعدة العريضة. ومرة أسبابها اقتصادية اجتماعية محضة وهلم جرى.

والأكثر من هذا نجد "لويس رين" يُركز على افتقاد مقاومة بوشوشة للسند الديني من طرف أصحاب الزوايا، مع العلم أنه حاول كثيرًا استمالتهم لكن محاولاتهم كانت عبثًا، لأن الدعاية الفرنسية قامت بدورها ونسجت خيوط المؤامرة جيدًا، وقدمته على أنه يمثل هو ومقاومته خطرًا على مصالح الطرق الصوفية؛ منها على سبيل المثال الدور المخجل والمؤسف للطريقة التيجانية في موقفها من مقاومة بوشوشة، فيورد "لويس رين" موقف شيخ زاوية تماسين "سي محمد العيد" حينما اتصل به بوشوشة لغرض التعاون ضد الفرنسيين، فرفض استقباله، قائلاً له: "...إنه بمشيئة الله دخل الفرنسيون إلى الجزائر وأن حكومتهم دائمة فاحترس...".[٤٧] وهذا ما يتعارض مع الرواية الفرنسية الأخرى التي تؤكد ضلوع الطريقة السنوسية في ثورة بوشوشة.[٤٨]

غير أننا وجدنا من المؤرخين الجزائريين من يؤكد حقيقة انتماء بوشوشة للطريقة السنوسية، عن طريق مقدمها "الحاج أحمد التواتي" في الصحراء، الذي جند بوشوشة للعمل في الصحراء ضد الفرنسيين.[٤٩] يقدم لنا "لويس رين" تفسيرًا لكيفية جمع بوشوشة لأنصاره وحشدهم لمقاومة الفرنسيين، فلم يكن حسبه بحرية وإرادة سكان الجنوب، سيما أهل ورقلة حينما انظموا له كراهية بعد أحداث ١٨٧١/٠٣/٠٥م، بعدما جرى للميزابيين من طرف بوشوشة؛ من قطع رؤوس خمسة نبلاء منهم وأخذ مبلغ مالي قيمته ٩٥٠٠ فرنك فرنسي كفدية، هذا العمل في رأي "رين" هو الذي دفع أهل ورقلة للانضمام إلى حركته.[٥٠] ويؤكد "لويس رين" مرة أخرى على أن الشريف بوشوشة مجرد جامع للأموال؛ فيورد لنا قضية زواجه من "فاطمة بنت جلول"[٥١] حفيدة سيدي الشيخ في الفاتح من سبتمبر عام ١٨٧١م، هذا الزواج في رأي "رين" هو تحالف يجمع بين "سي الزبير" والشريف بوشوشة كان رغبة في المال والحصول على آغوية ورقلة "لسي الزبير"، فهنا يريد "رين" مرة أخرى أن يشكك في هذا التحالف الطبيعي بين رموز المقاومة، وينزع عنه صبغته الدينية والوطنية.

وفي ختام كلام "لويس رين" عن مقاومة الشريف بوشوشة، نجده ينقل لنا حيثيات محاكمة الشريف بوشوشة في المجلس الحربي بقسنطينة التي دامت خمسة عشر يومًا، يختم مرة أخرى وكعادته بالسب والتقزيم لهذه الشخصية الوطنية التي جمعت رموز المقاومة في الجنوب" كالشريف بن عبد الله" و"ابن ناصر بن شهرة" و"سي الزبير" حولها،[٥٢] ومن بين العبارات التي انتقاها "رين" أثناء محاكمة الشريف بوشوشة حسب زعمه، أن بوشوشة صرح بأنه كلب (سلوقي) استعمله الصياد لالتقاط الفريسة، وأن هذا الذي أمره بالصيادة أقنعه أن فرنسا زالت وانتهت وأنها لا تساوي شيئًا، فهو بذلك يرحب بقدرة ومصيره المحتوم عليه والمستحق من طرف الفرنسيين؛ لأن الذين اشتغل لصالحهم تخلوا عنه.[٥٣] فهو بهذا يختم كتابه بالتشويه والتقزيم والسب والطعن، كمطابقة

لمقدمة كتابه التي بدأها بسرقة الشريف بوشوشة دون تقديم دليل على ذلك.

خَاتِمَةُ

من خلال عرضنا لآراء "لويس رين" حول مقاومة الشريف بوشوشة، تبين لنا أن هذه المقاومة هي مقاومة وطنية شريفة الوسيلة والغاية، وكغيرها من ثورات القرن التاسع عشر قاومت الإستدمار الفرنسي وأعوانه.

تبين لنا أن مقاومة الشريف بوشوشة الوطنية واجهت صدامات وحروب مزدوجة؛ الأولى ضد آلة الدمار فرنسا آنذاك، والثانية ضد أعوان وأزلام الفرنسيين من بني جلدة الشريف بوشوشة، وللحقيقة التاريخية التي تكاد تكون واضحة جلية للعيان، أن سبب القضاء على مقاومة الشريف بوشوشة يتحمل قسطها الأوفر أعوان وأزلام الفرنسيين.

حينما ندقق فيما ما حشده "لويس رين" في كتابة "تاريخ انتفاضة ١٨٧١ في الجزائر" من كيل للسب والتجريح غير المدلل عليه، يكمن في استطاعة الشريف بوشوشة تحرير كل من مدن ورقلة وتقرت ومتليلي والمنيعة خاصة في سنة١٨٧١م؛ سنة ارتفاع حمى ولظى مقاومة الشريف على الفرنسيين وأعوانهم، يضاف إلى ذلك خطر بوشوشة الحقيقي في استطاعته لأول مرة في تاريخ المقاومة في الصحراء؛ التفاف رموز المقاومة في الجنوب "كالشريف بن عبد الله"، و"ابن ناصر بن شهرة"، و"سي الزبير" حوله، من هنا راح الفرنسيون يكيلون له التهم الساذجة التي لا تقرها حتى أنفسهم الاستعمارية.

لا يمكننا أن نفصل مقاومة الشريف بوشوشة عن التعبئة الدينية آنذاك؛ والمتمثلة في الطرق الصوفية، فقد رأينا وجود اتصالات تثبت علاقة كل من الطريقة السنوسية والرحمانية في إشعال فتيل مقاومة الشريف بوشوشة.

التوصيات

- ضرورة إدراج المقاومات الشعبية في الجنوب الشرقي والغربي في كتب التاريخ بالنسبة للناشئة (الطور المتوسط مثلاً).
- ندعو إلى تأسيس مخبر علمي يعنى بجمع التراث المحلي الخاص بتاريخ الصحراء عبر العصور.
- إقامة أيام تحسيسية تحتضنها الجامعة لبعض المهتمين وأصحاب الخزائن العائلية التي تملك تراث مخطوط يتعلق بتاريخ المقاومات في الصحراء الشرقية لغرض فتح بيوتهم للباحثين واطلاعهم على ما يملكون من تراث مخطوط.
- توجيه طلبة الماستر في جامعتنا إلى الاشتغال بالبحث في تراثنا المحلي ومنها المقاومة.

الملاحق:

ملحق رقم(١): فقرة مقتطفة من كتاب لويس رين[٥٤] تبين تحامله فيها على الشريف بوشوشة ووصف حركته بالإجرامية التي كانت تقوم بها جماعة المداقنة.

"...Cependant, après la capture de Bouchoucha, « quelques Chamba insoumis, ses compagnons de la première heure et ses derniers fi dèles, formèrent une bande de pillards qui, sous le nom de Medaganat, se sont rendus célèbres par des exploits légendaires. Pendant dix ans, 1874-1883, ils ont coupé tout le grand. Sahara de l'Oued-Draa jusqu'au Fezzan, razzant, tuant indistinctement amis et ennemis, et ils se sont fait massacrer dans une expédition contre l'Iguidi. Leur sanglante épopée, dont quelques-unes de nos tribus de l'extrême sud furent plusieurs fois victimes, forme un curieux chapitre de l'histoire saharienn..."

ملحق رقم(٢): يوضح أصل معنى كلمة المداقنات في نظر الرواية الفرنسية:[٥٥]

كلمة المداقنات نسبة إلى مداقن اسم رجل ترقي جاء إلى الشعانبة سنة ١٨٦٠م فأحسنوا إليه، ولكنه أساء إليهم حين سرق بعض إبلهم، وأول من أطلق هذه التسمية هو معطى الله بوظفر كبير شعانبة ورقلة الذي كان في ضيافة بوبكر بن عبد الحكم زعيم الشعانبة المواضي في مجاعة عام ١٨٦٧م، وعندما قدم له عنزة مشوية بدون ملح ولا سمن قال له مازحا: إنكم قد تعتدون على من يفعل معكم الخير، تسرقون العدو والصديق، أنتم مثل الطوارق مداقنات.

ملاحظة:

بقيت التسمية تطلق على الجماعة التي اتخذت السلب والنهب والقتل عمال لها في الصحراء منذ سنة ١٨٦٨م، وهذا في نظري تحينا للفرص من طرف الفرنسيين، حينما حددوا لها تاريخًا يوافق ويطابق زمكانية مقاومة الشريف بوشوشة تقريبًا.

الملحق رقم (٣): كشاف معارك بوشوشة ضد كل من الفرنسيين وأعوانهم من الجزائريين حسبما ما جاء في كتاب "لويس رين"، "تاريخ انتفاضة ١٨٧١في الجزائر"، مقتطفة من صفحات متفرقة.

- مرحلة التحضير وجمع الأنصار: ظهوره بعين صالح عام ١٨٦٩م ومبايعة الشعانبة المواضي له كشريف عليهم.
- دخوله المنيعة في أبريل ١٨٧٠م وسجن القائد "جعفر" عميل الفرنسيين فيها.
- دخوله متليلي في ١٨٧٠/٠٥/٠٥م.
- بعد أسبوع من أحداث متليلي توجه إلى آبار سبسب أين اشتبك مع قائد الأرباع "لخضر بن محمد".
- مكوثه بعدها في عين صالح عشرة أشهر من ماي ١٨٧٠، إلى مارس١٨٧١قضاها في جمع أنصاره وتحريض الشعانبة، دون القيام بأي عمل عسكري يذكر.
- وصوله إلى نقوسة في ١٨٧١ /٠٣/٠٥م، ودخوله ورقلة دون مقاومة تذكر، التي كانت تابعة لأغوية "علي باي بن بوعكاز"، بواسطة خليفته عليها "سي نعمان بن ذباح".
- في ١٨٧١/٠٥/٠٨م، اتجه بوشوشة إلى قمار، لكن السوافة قاوموه ورفضوه، ومن بينهم شيخ الزاوية التيجانية" محمد الصغير بن الحاج"، واتفقوا على دفع مبلغ مالي له مقابل رحيله عنهم.
- بعدها اتجه إلى مويت القائد ووصول مجموعة من الرسائل من زعماء وشيوخ عرب غرابة، وسلماية، وأولاد رحمان، وأولاد مولات، ونزلة، ومجارية، يعرضون فيها المساعدة.
- في ١٨٧١/٠٥/١٣م تمكن من دخول تقرت وبقي بها إلى غاية ٢١ ماي من نفس الشهر والسنة، حيث عين خليفة له وأغا على تقرت السيد "قوبي بن قوبي".
- شهرين من بعد ذلك حاول بوشوشة كسب تأييد الزاوية التيجانية عن طريق شيخها "سي محمد العيد"، ولكن دون جدوى، ومنها رحل إلى بلدة عمر وبعدها إلى عين صالح لجمع الأنصار حوله.
- محاولة "علي باي" استرجاع مدينة تقرت الفاشلة بتاريخ: ١٨٧١/٠٧/٠٨م، بمساعدة أولاد عمر، وأولاد زكري، وأولاد نايل.
- في ١٨٧١/٠٧/١٠م وصول بوشوشة رفقة "ابن ناصر بن شهرة"، ونجاحهما في اقتحام مدينة تقرت وهزيمة "علي باي" وانسحابه إلى بسكرة في ١٨٧١/٠٧/١٠م.
- بعد هذه المعركة في شهري جويلية وأوت جرت بينه وبين أولاد زكري حلفاء "علي باي" معارك أثرت على بوشوشة وهزت هيبته أمام أهل الزقم وكوينين وتاغزوت من السوافة ومطالبتهم إياه بإرجاع الفدية حسب رين، بعدها ترك بوشوشة رفيقه" ابن ناصر بن شهرة" خليفة له على تقرت، ليتوجه إلى النوميرات جنوب العطف(غرداية)بميزاب التي حل بها في ١٨٧١/٠٨/٣١م.
- في ١٨٧١/٠٩/٠٤م يخيم بوشوشة ببني يزقن مطالبًا الميزابيين بدفع الإتاوات والخضوع له ومبايعته، لكنهم رفضوا ليقرر الرحيل عنهم في ٠٦ من نفس الشهر.
- في نفس الشهر رجع إلى ورقلة صحبة "سي الزبير" فوجد في استقباله "ابن ناصر بن شهرة"، و"الشريف محمد بن عبد الله"، رفقة أولاد خليفة، وحمامة.
- مرور شهري سبتمبر واكتوبر١٨٧١م دون أن يقوم الشريف بوشوشة بأي عمل عسكري.
- في ١٨٧١/١١/٠٧م وقعت معركة بين بوشوشة والقائد "بولخراس بن قانة" وقبيلة سعيد عتبة، وذلك بمنطقة "كويف جبلة" بين القرارة والعالية، فقد فيها بوشوشة ٥٠ من جنده وأصيب هو بجروح، لينسحب إلى "حاسي القطار" جنوب ورقلة للعلاج، ومنها إلى "حاسي بوروبة".
- في ١٨٧١/١٢/٢٧م يحتل الجنرال "دولاكروا"(Delacroix) مدينة تقرت بعد تحرير دام ثمانية أشهر.
- في ١٨٧٢/٠١/٠٢م ينجح القائد الفرنسي "روس" في احتلال ورقلة بعد تحرير دام عشرة أشهر.
- في١٨٧٢/٠١/٠٩م وقعت معركة تامزقيدة التي هزم فيها علي يد القائد الفرنسي "روس" وأعوانه من أولاد عبد النور وأولاد نايت من سطيف، وقبيلة سعيد عتبة وأولاد زكري، ومخازنية علي باي، وأتباع بوعكاز.
- في ١٨٧٢/٠١/١١م تعرض الشريف بوشوشة للقتل من طرف" مولاي العربي" أحد أشراف ورقلة.

- بعد معركة تامزقيدة، اتجه الشريف بوشوشة إلى عين صالح ومنها إلى كرزاز ومنها إلى توات لتجديد حركته
- قيامه بمناوشات في كل من الأغواط والمنيعة وورقلة في جويلية١٨٧٣م، وفي ورقلة اصطدم "بالسعيد بن إدريس" خليفة وأخ أغاورقلة" محمد بن الحاج بن إدريس" في موقع "حاسي الناقة".
- في ١٨٧٤/٠٢/١٣م يهاجم بوشوشة بلدة" مطماط "شرق الحجيرة، ويستولي على٢٥٠ جمل، ليكلف الجنرال "ليبير" (Liebert) السعيد بن إدريس بمطاردته، ولكنه فشل في ذلك في موقع "حاسي بكلوة" بتاريخ: ١٨٧٤/٠٢/١٩م.
- في ١٨٧٤/٠٣/٣١م وقعت معركة "الميلوك" جنوب عين صالح، تم القبض على الشريف بوشوشة، علي يد كل من: "بعج بن قدور بن مبارك قائد السعيد عتبة"، "وأحد رجال السعيد بن إدريس" بعدها اقتيد إلى ورقلة، بعدها اقتيد إلى العاصمة ليعرض على المجلس الحربي، ليُحال بعدها إلى المجلس الحربي بقسنطينة، (بتهمة أنه مجرم حرب)، لينفذ فيه حكم الإعدام بمعسكر الزيتون بتاريخ: ١٨٧٥/٠٦/٢٩م.

الهَوامِشُ:

(١) عبد الله العروي: **مفهوم التاريخ**، ط٤، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥، ص١٧.

(٢)عبد الله العروي: المرجع السابق، ص٩٧، نقلاً عن: لستر ستيفنس: **الاسطوغرافيا**، ١٩٧٥م.

(٣) نفسه، ص٩٧.

(٤) تنقسم كتابات الفرنسيين إلى قسمين: عهد المؤرخين العسكريين ١٨٣٠-١٨٨٠م وعهد المؤرخين الاختصاصيين ١٨٨٠- إلى يومنا هذا.

(٥) محمد غالم: "**من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسية والهجرة إلى الديار الإسلامية**"، في مجلة إنسانيات، المجلة الجزائرية في الانثروبولوجية والعلوم الاجتماعية، وهران ٢٠٠٠، العدد ١٢، ص٢٧-٣٨.

(6) A.Berbrugger, Introduction, in(R.A) N° 1, Annee 1856, AlgerA.Jourdan, Libraine-Editeue,p4.

(7) E. Mangin, NotesSur l'histoire de Laghouat, in(R.A) N° 38 Année 1894 , O.P.U. Alger P87.

(٨) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٢، ج٣، ج١، ص٧.

(٩) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص١٠.

(١٠) غرينة عبد النور: **الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيانية "١٨٤٠-١٩٣٩م"**، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الأوراس الحديث والمعاصر، (غ.م)، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر، باتنة ٢٠٠٩- ٢٠١٠م، ص٦٢، نقلاً عن:

Faucon,LelivreD'Or,p446.

(١١) غرينة عبد النور: المرجع السابق، ص٦٢.

(١٢) نفسه، ص٦٢.

(13) Louis Rinn, Marabout et Khouan, étude sur L'islam en Algérie A, Jourdar; Alger, 1884. p526-548.

(١٤) غرينة عبد النور: المرجع السابق، ص61.

(15) Louis Rinn,Histoire de L'insurrection de 1871, en Algérie. Alger, 1891.

(16) Louis Rinn,Marabout et Khouan,Op,Cit,.pp526-548.

(١٧) أثناء ثورة الشريف بن عبد الله في ورقلة والأغواط (١٨٥١- ١٨٦٣م)، تعاونت معه الطريقة الرحمانية، وناصره الخليفة حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الذين كانوا ينتمون للطريقة الشيخية، وقد أيده في سره وفي علنه، يُنظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٨٥.

(18) Ibid, p114.

(19) Ibid, p200.

(٢٠) محمد غالم: المقال السابق، ص٣٢.

(٢١) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص٢٩٠.

(٢٢) عبد القادر بوباية: "**نشاط بن ناصر بن شهرة في تونس وعلاقته بالأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر**"، في مجلة

عصور، مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، جامعة وهران ٢٠٠٣، العدد ٠٣، ص ٣٩-٤٨.

(٢٣) هو الضابط الفرنسي لوشاتوليه كان من ضباط المكاتب العربية في ورقلة ومؤسس مجلة العالم الإسلامي، في سنة ١٨٨٧ صدر له كتاب "الطرق الإسلامية في الحجاز"، وقد ربط في هذا الكتاب بين بعض الطرق في الحجاز والجزائر، أما الكتاب الذي تناول فيه مقاومة الشريف بوشوشة هو:

-Le Chatelier, Les Medaganat, ,in(R.A) N° 30,1886.

(٢٤) قضية تاريخ ميلاد بوشوشة حصل فيها تضارب بين الروايات، فحسب "Mangin" يكون قد ولد سنة١٨٤٧م، يُنظر:

-Mangin, Op,Cit,p134.

(٢٥) أحمد بحري: **دور الطرق الصوفية في المقاومة الشعبية خلال القرن التاسع عشر**، (د.ت)، ص٢٠، نقلاً عن:

-H. Simon, Comment Bouchoucha raconta un jour son histoire, Bulletin de Liaison Saharienne, Alger, janvier 1955, n 19, p 16.

(٢٦) محمد بن معمر: "**الشريف بوشوشة: زعيم ثورة ١٨٧١م في صحراء الجزائر الشرقية**"، في مجلة عصور، مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، جامعة وهران٢٠٠٢، العدد ٠١، ص١٠٩.

(٢٧) أحمد بحري: المقال السابق، ص١٩.

(٢٨) نفسه، ص١٩.

(٢٩) محمد بن معمر: المقال السابق، ص١٠٩.

(٣٠) أحمد بحري: المقال السابق، ص١٩.

(٣١) أحمد بحري: المقال السابق، ص١٩.

(٣٢) محمد بن معمر: المقال السابق، ص١٠٩.

(٣٣) نفسه، ص١٠٩.

(٣٤) نفسه، ص١٠٩.

(٣٥) نفسه، ص١١٠.

(٣٦) نفسه، ص١٠٧.

(٣٧) حول أصول وماهية الكلمة انظر: الملحق رقم (٢).

(38) Le Chatelier, Les Medaganat... , Op,Cit, pp 39-40.

(39) Louis Rinn, Histoire de L'insurrection de 1871... ,OP,Cit,p79.

(٤٠) وجد هذا الوصف والنعت السيئ لجماعة الشريف بوشوشة في أكثر من مرة في كتابات كل من: "لويس رين" و"شاتولييه" في كتابيهما المذكورين سابقًا.

(٤١) محمد بن معمر: المقال السابق، ص١٠٧.

(٤٢) نفسه، ص١٠٧.

(٤٣) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص٣٥٤.

(٤٤) قسم عموم الباحثين مقاومة الشريف بوشوشة إلى ثلاثة مراحل: مرحلة الإعداد والتحضير(١٨٦٢-١٨٦٩م)، مرحلة المقاومة والانتصار (١٨٧٠-١٨٧٢م)، مرحلة التراجع والانهزام(١٨٧٢-١٨٧٤م)، ولمزيد معرفة كرونولوجيا أحداث مقاومة الشريف بوشوشة، يُنظر:

Louis Rinn, Histoire de L'insurrection de 1871... ,OP,Cit,pp52-74.

(٤٥) محمد بن معمر: المقال السابق، ص١٠٧.

(46) Louis Rinn, Histoire de L'insurrection de 1871... ,OP,Cit,p140.

(47) Ibid, p.493.

(٤٨) هذا الرأي المنفرد ذهب إليه الفرنسي" هنري قارو" في كتابه: "**تاريخ الجزائر**"، الصادر بالجزائر سنة ١٩١٠، ص ٩٤٥-٩٤٦، يُنظر: أحمد بحري: المقال السابق، ص٢٠. الهامش رقم (٢٨).

(٤٩) أحمد بحري: المقال السابق، ص٢٠، نقلاً عن: أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج١، ص١٧٥، الهامش رقم:(٢٩).

(50) Louis Rinn, Histoire de L'insurrection de 1871... ,OP,Cit, P.١٤٠.

(٥١) مرة أخرى يشكك "رين" في نسب وشرف الشريف بوشوشة، فيؤكد أن زوجته "فاطمة بنت جلول" لم تكن راغبة أصلاً في الزواج به، وإنما أرغمت على ذلك، وأنها كانت تحتقره لأنه ليس من مستواها ولا من دمها الشريف، يُنظر:

Louis Rinn, Histoire de L'insurrection de 1871... ,OP,Cit, P.617.

(٥٢) محمد بن معمر: المقال السابق، ص ١١٨.

(53) Louis Rinn, Histoire de L'insurrection de 1871... ,OP, Cit, Pp. 662-663.

(54) Louis Rinn, Histoire de L'insurrection de 1871..,OP, Cit, P. 663.

(55) Le Chatelier, Les Medaganat... , Op,Cit, pp 39-40.